أنور قليمة
المحامي

ثورة علي بك الكبير

١٧٦٨م

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبحي وشركاه)

الإهداء

أهديت كتابى الأول إلى مصر أمنا الكبرى .

الوطن العزيز الغالى الذى آمنت بمجده الأزلى .

وأهديت كتابى الثانى إلى الجامعة المصرية أمنا الصغرى .

عماد مصر الحديثة ومناط أملها فى السير بها نحو الكمال القومى .

وأهدى كتابى الثالث إلى ذكرى أمى .

أنور زقلمه المحامى

مايو ١٩٥٢

تصدير

فى سنة ١٥١٧م دخلت مصر فى حوزة الحكم التركى باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال ما كان لها من استقلال فى عهد السلاطين البرجية . واستتبع الفتح العثمانى وضع نظام للحكم رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٧٩٨م . وقوام هذا النظام إيجاد ثلاث سلطات تتنازع الحكم وتتقاسمه وهى سلطة الوالى التركى وسلطة رؤساء الجند وسلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان العثمانى . وقد تطور هذا النظام إلى انفراد المماليك بالحكم فتلاشت سلطة الوالى وصارت قوات الجند تحت إمرتهم . واستأثروا بالحكم من أواخر القرن السابع عشر . وساعدهم على تحقيق هذا الهدف تقهقر السلطة العثمانية وانصرافها إلى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر . ومعاونة الشعب المصرى لهم فى الاستقلال بمصر والتخلص من السيادة التركية . وقد ظهرت هذه السيادة جهرة فى عهد على بك الملقب بالكبير الذى أرّخه الأستاذ أنور زقلمه فى هذا الكتاب القيّم .

وعلى بك الكبير هو من الأمراء المماليك وصل بقوة أشياعه إلى رآسة الحكومة وكانت تسمى « مشيخة البلد » سنة ١٧٦٣ . وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر . فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة تركيا وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وعزل الوالى التركى ومنع ورود الولاة العثمانيين . وضرب النقود باسمه . ودانت له مصر بحريها وقبليها . وكان من مماليكه وأتباعه أحمد (باشا) الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوى وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم

ممن كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع . فجرد الجيوش المصرية وفتح معظم جزيرة العرب . ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . ولكن لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على سيده واتفق مع تركيا على خيانته . وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بمقتل على بك الكبير سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبى الذهب . وكافأته تركيا بفرمان تثبيته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر .

فتاريخ على بك الكبير هو محاولة لاستقلال مصر وتخليصها من التبعية لتركيا . ولئن انتهت هذه المحاولة بالفشل والإخفاق فإن هذا لا يغضّ من مكانته فى تاريخ مصر . ولقد خصص الأستاذ الأديب أنور زقلمه المحامى النابه هذا الكتاب القيم لإبراز هذه المكانة على ضوء الحقائق التاريخية . وفى الحق أنه أوفى الموضوع حقه من ناحية البحث العلمى والاستقصاء فى لغة سهلة مشوقة .

وللأستاذ أنور زقلمه كتب قيمة فى التاريخ المصرى تدل على أنه من المؤلفين النابهين الذين يعنون بالبحث والتحقيق . واستخلاص المعانى القومية من ثنايا الحوادث التاريخية . فله من هذه الناحية فضل عميم . وهو جدير بالشكر على ما يبذله من جهود موفقة فى ميادين البحث العلمى والتاريخى .

مايو ١٩٥٢

عبد الرحمن الرافعى

المحامى

مقدمـــــة المؤلف

عند الإنجليز كلمة مشهورة عن شكسبير قالها فيه كارليل وهى أن شكسبير خير لنا من الهند ، وهذا أكبر مدح يقوله انجليزى عن آخر .

ولست تجد شاباً من أى جنسية أخرى لا يستطيع أن يحدثك ويفاخرك بعظماء وطنه — وأمجادهم عدانا فنحن لا نستطيع أن نعد لأنفسنا عظماء — بل لأننا لم ندرس عظماءنا ولم نخصص لهم الدراسات ... فلم نستطع أن نفهمهم ونقدسهم .

والسبب فى ذلك يرجع إلى الفكرة الدنلوبية ، التى حولت مناهج التعليم إلى مجرد نهج لإعداد موظفين حكوميين للأعمال الحكومية دون تزويدهم بأى ثقافة قومية — أو بفكرة عن أمجاد بلادهم وتاريخها الملىء بالعظمة والفخار .

فالأبطال المجهولون فى تاريخنا ... بل فى تاريخنا الحديث ... كثيرون ويجب علينا نحن كتاب الجيل الجديد أن نعمل على إنصافهم وإظهار أمجادهم ونضعها موضع الدرس والتحليل حتى يلتهم الشباب المصرى بعض تلك العظمة التى توحى بالعمل لمصر وخدمتها كما خدمها أولئك الأبطال ... نحن أمة مجيدة ... قد غمطها التاريخ حقها — نريد أن نظهر عظمة بلادنا واضحة مجلوة من تلك الأتربة التى تراكمت على تاريخنا وسيرتنا — فواجبنا أن نظهر تلك العظمة المستترة وأن نعرف القراء بأبطال تاريخهم ونحدثهم عن عظمائهم ونطلب منهم أن يحذوا حذوهم وأن يكونوا عظماء مثلهم ... إذ كيف يستطيع إنسان أن يشعر بعظمة وطنه ويرى من واجبه الأول أن يزيده عظمة وهو لا يعرف عن مجده شيئاً ... بل ولا يعرف سيرة عظمائه وتاريخهم والمثل العليا التى سعوا لها .

فقد ابتلينا دون شعوب العالم بنزعة عجيبة ، هى تضخيم عيوبنا وتجسيم رذائلنا وتهوين شأننا ، أما فضائلنا فلا يذكرها أحياناً إلا الأجانب الذين يعرفون أننا أصل حضارة العالم ... فواجبنا أن نذكر الناس أن إنجلترا التى يقال أنها سيدة العالم قد ملكها أهل اسكندناوه ، واجتاحها الفرنسيون ، واستعبدها الرومان .

وأن نذكر المصريين أن بلادهم كانت دائماً أمبراطورية فى تاريخها القديم ، وفى تاريخها الحديث ، لا بل الأحدث[1] وأنها كانت سيدة العالم يوم هزم ملوكها جيوش الشرق والغرب واحتلت جحافلها كل العالم المتمدين فى ذلك الحين ، لا بل أكثر من ذلك فبعض المصريولجيين يقول أن آثار الفراعنة موجودة فى أمريكا قبل أن يكتشفها « خرستوفو كلمبوس » .

وأن جيوش صلاح الدين سلطان مصر قد قهرت جيوش إنجلترا وفرنسا وألمانيا مجتمعين ، وأن فى عهد على بك الكبير هزمت دولة الخلافة وأن محمد على هزم إنجلترا فى واقعة أبو حماد ... وبقيادة ابراهيم باشا اجتاحت جيوشها الأمم والشعوب ... وزلزلت سلطان تركيا ... لولا تألب دول أوروبا عليها ووقوفها سداً أمام مصر المنتصرة ... وأن جنودنا ساعدوا فرنسا فى المكسيك فى عهد نابليون الثالث ... وعلينا واجباً نحو مصر بلادنا أن نذكر أهلها بماضيهم وحاضرهم المجيد حتى يزول عنهم ضعف الثقة بأنفسهم وشهوة الغض من قيمتهم .

* * *

إن فترة الاحتلال لم تقتل فينا الروح ولكنها خدرتها وأنامتها .

وأن تاريخنا الذى أظهره لنا الاحتلال هزيلا — إلى جانب تاريخ الأمم الأوربية ، التى أطالوا فى وصف مفاخرها وأفاضوا وأسهبوا — كان له فعلا بعض الأثر فى إظهارنا هزيلين فى أنفسنا — وأقزاماً بالقياس إلى كل ما هو أوروبى ...

---

(١) سنصدر قريباً كتابنا « مصر الأمبراطورية كيف كانت وكيف يجب أن تعود » .

ضرب فينا شيئا من الخور والتراخى ... وتراءت لنا الأشياء فى فترة إغفائنا على غير حقيقتها ونسبتها الصحيحة ... فضعفنا الطارئ خلناه ضعف الأبد ... وتصورنا الوقتى توهمناه دائماً ثابتاً فى طبائعنا ... واستبد بنا الوهم فاعتقدنا أننا وحدنا دون شعوب الأرض القدر لهم النوم والوهن ... وأنه ما من أمة أخرى فى أوروبا العملاقة قد مرت بهذه الفترة وقد ترتب على هذا الاعتقاد ذلك الشعور بالقصور الدائم عن ملاحقة الأمم التى بهرنا تاريخها المجيد ... وكلما حاول بعضنا النهوض كذبنا أعيننا وكذبناه ... وأصبح الغض من قيمة أعمالنا شهوة من شهوات النفس ... إنها شهوة العبيد ... كل ذلك عرفناه ومررنا به ... ولكن من حسن الحظ ... ما حدث ذلك قط فى الحقيقة .. ولكن فى الحلم والوهم ... فى فترة الإغفاءة التى لازمت الاحتلال ... وما كدنا نفيق حتى أبصرنا الأشياء على أوضاعها ونسبها ... وعرفنا أنفسنا ... وأدركنا أن فى مقدورنا أن ننهض على أقدامنا وأن نسير وأن نلحق بركب الحضارة .

ومن يدرى غداً ؟ ...

فسنكون فى المقدمة كما كنا دواماً .

* * *

ناديت فى « مقدمتى كتابى السابقين[1] » الأدباء والكتاب أن يهتموا بتاريخ مصر الحديثة وسير أبطالها المغمورين الحقوق ، ولا أزال أنادى فى هذا الكتاب إلى مضاعفة الجهد في الاهتمام بهذا الموضوع .

وذلك بأن ندعوا إلى تنفيذ الاقتراحات الآتية :

* * *

---

(١) عصر المماليك — والثورة العرابية .

وجوب إنشاء جامعة شعبية :

لا تتقيد بالنظم الحكومية ويكون هدفها الأول قبول المثقفين لإعدادهم إعداداً قومياً وتربية جيل جديد من الشباب المصرى مملوء بفخر بلاده وحبها — — عارف بتاريخها ومفاخره ولنعطيه المثل الواجبة الاحتذاء .

كرسى دائم فى الجامعات المصرية لدراسة تاريخ الثورات المصرية :

إنشاء كرسى دائم فى الجامعات المصرية لتاريخ الثورات المصرية ، وقد أخذت كافة الدول بهذا التدبير باعتباره عملا قومياً .

فهذه تركيا ما كادت تنتصر فى ثورتها الأخيرة وتستقر لها الأمور حتى أنشأت هذا الكرسى فى جامعة استانبول للتاريخ التركى الحديث — وحتى ألمانيا وقد كانت من الدول العظمى التى لم يكن لشبابها حاجة لمثل ما نحتاج إليه ، قد عملت بعد الحرب العالمية الأولى على تدريس الثورة النازية فى المدارس باعتبارها جزءاً من التاريخ الألمانى الحديث . بل ورتبت تاريخها الماضى والحاضر على أساس تلك الثورة .. !!

فإذا كانت هذه الدول أقدمت على هذا فنحن من باب أولى أحق من كافة دول العالم بذلك إذ لا يزال جهادنا مستمراً للوصول إلى الاستقرار بعد أن حصلنا على الاستقلال ؟ !

* * *

وليس يعيبنا أن نلجأ من حين إلى حين إلى الثورة لتحقيق أمانينا ، فإن كافة الدول العظمى إنما ولدت فى عهد ثورات ولولاها لما نشأت تلك الدول ... وليس العهد ببعيد على ثورة الولايات المتحدة على إنكلترا ... ولا الثورة الفرنسية ... ولا الثورة الروسية الخ ...

فقديماً غزا الفرس والنوبيون والرومان واليونان والعرب والأتراك مصر وبقيت دولهم فيها حيناً طويلا أو قصيراً وانتهت كل تلك الحكومات الأجنبية بوثبة من الشعب المصرى الكريم تنتهى بإخراج الأجنبى الغاصب وسيادة الحكومة التى يرتضيها الشعب لنفسه وهذه الثورات الشعبية يحدثنا عنها التاريخ المصرى فى أطواره المختلفة وليست حكومات الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك المصرية المستقلة إلا أمثلة على جنوح الشعب المصرى إلى الاستقلال عن غيره من الدول حتى فى ذلك التاريخ البعيد الذى لم تك قد حددت فيه القوميات تحديداً معروفاً كاملا ... والتى كانت ترزح فيه أوربا تحت عبء ثقيل من الاضطهاد والاستعباد .

وحتى بعد أن بليت مصر بسيطرة قاسية من حكم تركى مستبد تلاه حكم المماليك القاسى ، لم تفقد مصر تلك الميزة الخاصة بها وهى أن نهضتها لا تقوم إلا على ثورة شعبية ، منها يبدأ طور جديد من أطوار تاريخها وتبدأ نهضتها وتخطو خطوة جديدة نحو المجد بثورة أخرى جامحة تفوق الأولى وتزيد عنها .

تنظيم المكتبة القومية :

وبعد أن ننشىء الكرسي الدائم فى الجامعة للثورة المصرية ، يجب أن ننظم المكتبة القومية وذلك بأن نكل إلى جماعة من المؤرخين بالتفرغ إلى دراسة النهضة المصرية الحديثة وتدوينها . وإلى ترجمة الكثير من الكتب الإفرنجية الخاصة بتاريخ مصر الحديثة وجمعها وتبويبها ونشرها .

وقد اتبع هذه الخطة المجيدة حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد بأن شجع إلياس بك الأيوبى على إتمام كتابه عن عصر إسماعيل ومحمد على . كما شجع محمد بك رفعت على إنجاز كتابه فى الإمبراطورية المصرية الحديثة . كما أنه أمر

المسيو هانوتو الوزير الفرنسى والمؤرخ الشهير على وضع مؤلف عن تاريخ الأمة المصرية . وتعطف جلالته رحمه الله وتبرع للجمعية الخغرافية الملكية بمدة آلاف من الجنيهات لتنفقها فى طبع الوثائق والمستندات السياسية والتاريخية الخاصة بمصر الحديثة فالمكاتبات والمراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين مصر والدول الأوربية والموجودة أصولها فى كافة الدول .

كما سمح جلالته وخلفه الملك فاروق الأول لكافة الراغبين فى البحث بالاطلاع فى مكتبة القصر على كافة ما بها من الكتب والمخطوطات النادرة

وفى هذا الباب يجب ألا ننسى أن نذكر بالفضل الجزيل صاحب السمو المرحوم الأمير عمر طوسون وأن ننوه بفضل كتبه ونشراته على تاريخ مصر الحديث وإمبراطوريتها المفقودة .

المكتبات الشعبية :

بعد تنظيم المكتبة القومية نغذى بكتبها مكتبات شعبية ننشرها فى كل مكان ونبعثها ولو على عربات متحركة إلى الريف ومعها الموظفون المختصون إلى كل جهة لتكون فى متناول الشعب فقيره وغنيه . جاهله ومتعلمه فيتولى الموظفون تعليم الأولين ويقوم الفريق الثانى على قراءة ما تحويه المكتبة .

النهوض بالتعليم العام :

وقبل ذلك كله يجب أن ننهض بالتعليم العام وأن تهديه البرامج وعلى الأخص كتب القراءة التى تعطى للنشء . فنعد له كتباً جديدة من تلك التى تبعث فيه روح الجيل الجديد الروح الجديد روح القومية المصرية الفائزة التى انتصرت على كافة القوميات من فجر التاريخ إلى الآن .

ولسنا مغالين فى هذا فإن تاريخ مصر قديمها وحديثها هو تاريخ شعبها المتوثب وقوميتها الكامنة التى لا تفنى ، وقد فنت كافة الدول التى غزت مصر ولم تفن نفسية الشعب الفرعونية المتأصلة فيه .

وللشعب المصرى ، مقدرة غريبة على هضم كافة القوميات التى تمتزج به ، على أن يؤقلمها ويمصرها ، وتخرج أخيراً القومية المصرية من هذا المزيج سليمة ، لها كل ميزاتها وطابعها الخاص .

* * *

وتاريخ مصر الحديثة قام على ثورات متعددة ، بدأ بثورة على بك الكبير على تركيا — ثم بثورة الأهالى على المماليك ، وعلى الأتراك ، ثم ثورتهم على الفرنسيين ثم على الأتراك ورغبتهم فى الاستقلال بالمفاوضة مع دول العالم على أيام بعثة الجنرال يعقوب ، ثم على تأييدهم لعرش محمد على باشا — ثم ثورة محمد على باشا على النظم والأساليب الشرقية فى الحكومة — ثم ثورة الخديوى إسماعيل على العرف والتقاليد ، ثم ثورة عرابى على الرجعية ، ثم ثورة مصطفى كامل على الانجليز — ثم الثورة الكبرى المجيدة سنة ١٩١٩ على الاحتلال . . . التى لا تزال قائمة حتى الآن حتى يحين الوقت لثورة جديدة .

* * *

وهذا التاريخ هو تفصيل للثورة الحديثة الأولى — ثورة على بك الكبير — الذى حطم الأتراك وأعاد إنشاء الإمبراطورية المصرية ، وميز الجنسية المصرية عن شيوعها فى الجنسية التركية وأقام فى مصر أسس النظم الحكومية المستقرة على أساس شعبى وحاول القضاء على المماليك وإحلال جيش مصرى مكانهم .

* * *

هذه صفحات حررتها لوجه الله والوطن والتاريخ .

أرجو أن تحوز قبول المصريين ورضاهم .

وهذا حسبي وهو نعم الجزاء .

١٩٤٤/١٢/٢٥

المؤلف

أنور زقلمه

المحامى

مكتبة الكتاب — مراجع البحث

لقد سبق أن عودت قرائى فى كتبى التى سبق أن أصدرتها ، أن أقدم الكتاب بتفصيل عن مصادر البحث أسميه مكتبة الكتاب — وذلك لأهمية هذه المصادر ولكونها على الأخص جزءاً من تاريخنا القومى الذى يجب إعادة بحثه وتمحيصه على أساسها .

وإننى أحذو نفس الحذو فى كتابى هذا ...

* * *

مصادر التاريخ قسمين :

إما مذكرات شهود العيان الذين عاصروا الحوادث بأنفسهم ورأوها رأى العين .

أو كتب المؤرخين الذين فحصوا هذه المذكرات واستخلصوا منها مادة التاريخ بعد أن يخلصوها من ملابسات وظروف العصر الذى حررت فيه .

القسم الأول :

١ — وأول المذكرات التى دونها شهود العيان — بل وأهمها فى موضوعنا هذا ، وأولاها بل وتكاد تكون وحدها مصدر تاريخ مفصل لهذه الحقبة هو الكتاب الذى وضعه باللغة الإنجليزية ستافرو لاسنجيان الرومى وطبعه فى لندن سنة ١٧٨٤ وهو A History of the revolt of Ali Bey against The Ottoman .

وقد شرح فيه المؤلف بإسهاب حياة وعصر على بك الكبير إذ قد شاهد حوادثه بنفسه لمعاصرته له واشتغاله فى حكومته موظفاً — وحبذا لو عنى أحد

المترجمين بترجمته إلى العربية — والنسخة الوحيدة من هذا المؤلف موجودة بدار الكتب المصرية .

٢ — ثم كتاب فولنى الرحالة الفرنسى الذى زار مصر وراقب الحوادث بنفسه ونشر كتابه Voyages En Egypte et en Syaia pendant Les anneés 1783 - 84 - 85 - Par C. F. Volney

وطبع فى باريس ١٧٨٧ م .

٣ — كتاب براون « سياحة فى أفريقيا ومصر وسوريا من سنة ١٧٩٢ م » إلى ١٧٩٨ مطبوع فى لندن ١٧٩٩ وموجود منه نسخة واحدة فى دار الكتب المصرية .

وقد زار براون مصر بعد عهد على بك الكبير (فى زمن مراد بك) وكانت ملابسات العصر ورجاله لا تزال فى ذهن الزمن .

٤ — وزار مصر أيضاً سافارى بعد عهد على بك الكبير وأرسل مجموعة رسائله إلى ولى عهد فرنسا وفيها تفصيل لحوادث مصر فى ذلك العصر Savary Lettres Sur L'Egypte فى مجلدين نشرت فى باريس سنة ١٩٥٢ .

٥ — كما زار مصر فى عهد أبى الذهب فى نفس الوقت الذى زال فيه نفوذ على بك الكبير رحالة إنجليزى اسمه بروث وكان له صلة علاقة ودية مع أبى الذهب الذى خلف على بك الكبير حتى سماه يعقوب الحكيم .

وفى فبراير سنة ١٧٧٣ استصدر بروث فرماناً من أبى الذهب إلى شركة الهند الشرقية التجارية . وقد كتب هذا الرحالة مذكراته ونشرها فى أدنبره سنة ١٧٧٤ .

James Bruce — Travels to discover The Source of The Nile in The years of 1769 — 70 — 71 — and 1773.

٦ — وأهم المصادر العربية لمعاصرى هذه الفترة هى مذكرات الشيخ الجبرتى

التى أسماها جنراله — وهى سجل لحوادث اليومية التى كان يدونها الشيخ بنفسه والتى يراها أو يسمعها شخصياً وهذا الكتاب هو التاريخ الوحيد المفسر لذلك العصر ورغم ما به من تطويل ممل إلا أنه خلاصة قيمة لحوادث تلك الأيام .

وهو فى جزءان طبعا فى القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

القسم الثانى :

وكتب المؤرخون عن هذه الفترة للأسف قليلة ، لا بل ونادرة ونذكر منها باللغة العربية الكتب التالية :

١ — فتح مصر الحديث « أحمد حافظ عوض » .

٢ — الحملة الفرنسية وظهور محمد على « الدكتور فؤاد شكرى » .

٣ — على الكبير « الأستاذ أحمد خيرى سعيد » .

٤ — تاريخ مصر « للأساتذة عمر الاسكندرى وسليم حسن » .

٥ — مصر من عهد المماليل إلى نهاية حكم إسماعيل «للأستاذ على أحمد شكرى»

٦ — عصر المماليك « للمؤلف » .

ويوجد مئات من الكتب باللغات الأجنبية لم يتسع الوقت لاطلاعى عليها .

مصر الحديثة

يقسم المؤرخون تاريخ مصر العام إلى ثلاثة أقسام :

القديم : ويبدأ من عهد انبثاق الحضارة إلى انقضاء العهد الفرعونى بالفتح العربى

المتوسط : من الفتح العربى ، ويختلفون فى تحديد نهايتـه — فالبعض يحدده بالحملة الفرنسية أو ببعض حوادثها — مثل المقاومة الأهلية ، أو بخروج الحملة الفرنسية ذاتها .

الحديث : ومن نهاية ذلك العهد يبـدأ تاريخ مصر الحديثة الذى يرى أكثر المؤرخين أن يفتتحوه بقيام الأسرة العلوية الـكريمة — أو يبدأ عهد محمد على الـكبير — إذ أن خلاف المؤرخين منصب على تحديد نهاية القرون الوسطى وبدء الفترة المسماة — بمصر الحديثة — أى بالعهد الذى يبدأ من تاريخنا الحديث .

١ — الحملة الفرنسية :

يرى حافظ عوض فى كتابه القيم « فتح مصر الحديث » أن تاريخ مصر الحديثة يجب أن يبدأ من قدوم الحملة الفرنسية — إذ يقول فى مقدمة كتابه : « كان ظهور السفن الفرنسية بمن تقل من جنود وضباط وقواد وعلماء الخ فاتحة عصر جديد لمصر بدأ بالاحتلال الفرنسى — ثم عقب بالنزاع بين أوربا حول هذه البقعة المسماة وادى النيل !!... وذلك النزاع الذى مابرح يظهر على جميع الأشكال وغريب الأحوال — من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم من مصر إلى معاضدة المماليك بإنزال قوة انكليزية على الشواطئ المصرية ثم بمقاومة محمد على وإيقافه

عند حد لا يتعداه فى مشروعاته ومطامعه ثم بالمعارضة فى فتح قنال السويس إلى التداخل فى أمور مصر المالية حتى كانت الثورة العرابية والاحتلال .

فهو يرى أن الحملة الفرنسية هى افتتاح سجل تاريخ مصر الحديثة لأن هذه الحملة هى التى فتحت مصر للمجال الدولى وهى فيصل بين عهد القرون الوسطى والاقطاع والنظم القديمة والعهد الجديد الذى وصفته وسنته حملة بونابرت فى مصر — والواقع أننا مدينون لتلك الحملة بالكثير لأنها بقدومها أشعلت حماسة الشعب وذكت وطنيته وذكرته بحال التعاسة التى يعيش فيها — وإليها يرجع الفضل فى ارتقاء روح الشعب وثبات وطنيته سواء بما فرضته من الحنق على المصريين فقوت فيهم روح المقاومة والتضامن وأحيت الرأى العام وحفزته . أو بما أدته من خدمات للمصريين فبعثت فيهم روح البحث والاستقصاء وحب المعرفة والتطلع إلى المثل العليا فقد كانت أيام الاحتلال زمن حرب وثورة من جهة وزمن معارف وبحث من جهة أخرى . فحدثت من جراء ذلك هزة عنيفة فى البلاد تمخضت عنها الفكرة الاستقلالية التى هى بداية عهد مصر بتاريخها الحديث .

* * *

٢ — المقاومة الأهلية :

ويرى عبد الرحمن بك الرافعى فى سلسلة كتبه القيمة عن تاريخ مصر أن تاريخنا الحديث يجب أن يبدأ من المقاومة الأهلية للحملة الفرنسية — أى من مقاومة الأهالى لجنود جيش بونابرت ، لأنه يرى فى مقاومة الأهلين العزل من السلاح لتلك الحملة المنتصرة حدثاً جديداً فى التاريخ يجب أن يبدأ منه تاريخنا الحديث .

والواقع أن كل متتبع للتاريخ المصرى ليعجب كيف أن الأمة بعد طول رضوخها لعهد المماليك والأتراك وحكمها الاستبدادى مئات السنين تظهر تلك القومية الجامحة عند أول حافز .

أليس هذا وحده كافياً لأن يفتح به عهداً جديداً من التاريخ .

ولكن الواقع أن روح الشعب المصرى قد بقيت سليمة تحت أقسى أنواع الاضطهادات — وأن نار وطنيته لم تخب قط — وإن طغى عليها بعض الأحيان الجهل والفقر والظلم والاستبداد — ورغم ذلك فإنها عند أول قبس ينبثق فجرها .

٣ — الحكومة الأهلية :

ويرى آخرون من المؤرخين الذين يرون بدء تاريخنا الحديث من حوادث الحملة الفرنسية — إن ما أذاعه نابليون من رغبته وإقدامه فعلا على تكوين حكومة أهلية وإنشاء المجالس النيابية الأهلية هى بداية تاريخنا الحديث .

ولا جدال فى أن تأسيس المجالس النيابية كان نواة لنظام الشورى التى كانت تتوق إليه البلاد — إذ كانت صيحة الشعب فى تلك الحقبة التى سبقت الحملة الفرنسية هى وجوب وضع شئونه بين يدى زعمائه .

فإذا لاحظنا أن هذا النظام وضع سنة ١٧٩٨ م أى فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى لم يكن النظام الدستورى مألوفاً فى أوربا فما بالك فى الشرق ؟ !

والواقع أن هذا النظام كان شيئاً جديداً فى نظم الحكم كان له أثره فى التطورات التى ظهرت بعد ذلك — ولا شك فى أن نابليون بوضعه تلك النظم كان متأثراً بالأفكار والمبادىء الحديثة التى أوحت بها الثورة الفرنسية الكبرى إلى أذهان الناس والتى حملها معه إلى ميادين القتال .

وكان يصح أن يكون هذا بداءة عهد جديد فى التاريخ لو لم يخلف نابليون عهوده للمصريين كما أخلفها بعده بقرن الرئيس ولسن .

٤ — سفر الجنرال يعقوب لأوربا للمفاوضة فى سبيل استقلالها :

عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر . تجمعت على مصر الأوزار الناجمة عن